الشعر المصري في مائة عام :

محمود صفوت الساعاتي

للاستاذ محمد سيد كيلاني

— ٣ —

وقال :

طلبوا السلامة من سطاه وسالموا ملكا عليه عسيرهم لم يعسر
وقد استقالوا عثرة الحسن الذي زلت به قدم الضرير المبصر
وتزاحموا حول البساط لينظروا حرم الوفود وكعبة المستغفر

معنى البيت الأول جيد . وفي كلمة « عسير » تورية فهي اسم للبلاد الواقعة بين اليمن والحجاز . وتكون بمعنى الصعب من الأمور . ومعنى البيت الثاني جيد كذلك . وفي عجز البيت طباق بين « ضرير » و « مبصر » .

ومعنى البيت الثالث رائع لما أسبغ عليه من جو ديني .

وقال :

حتى إذا ثبتت بهم أقدامهم نكسوا الرؤوس لذي المقام الأكبر

وهو جيد المعنى . وفيه طباق بين « أقدام » و « رؤوس »

وقال :

نظروا إلى ملك لديه كل ذي ملك كبير كالأقل الأصغر

والمعنى تافه . وقال

ولو ان من قاد الجيوش إليهم غير ابن عون عاد غير مظفر
إن كنت تجهل فعله فاسأل به من شئته من أبيض أو أسمر
وسل الحجاز وأرض نجد والحمى عمن دحاها بالخيول الضمر

ومعنى هذه الأبيات وجيز . ولكن الشاعر أطنب لأن المقام اقتضى ذلك . وعبارة « فاسأل به » من ودىء القول . وكذلك « من شئته » .

وقال

ذلت له أسد الوغى من حمير مذ أيقنت منه بموت أحمر
حتى إذا ما أذنوا بقدومه هبط الإمام وكان فوق المنبر
وتسابقوا طوعا له في مشهد والكل بين مهلل ومكبر
سجدوا وقد نظروه شكرا للذي خلق العباد وخاب من لم يشكر

معنى البيت الأول تافه . وفيه جناس بين « حمير » و « أحمر » . وفي البيت الثاني تلاعب بالألفاظ . فأذنوا بمعنى أخبروا . وتكون من أذان المؤذن . والإمام هو إمام اليمن . وقد يكون بمعنى الشخص الذي يؤم الناس في صلاة . والمنبر بمعنى العرش . ويكون بمعنى الكرسي المرتفع الذي يخطب عليه الإمام في المسجد . والمعنى في حد ذاته تافه وهو أنهم ذلوا وخضعوا . ولكن الساعاتي أتى به في صورة رائعة . وأراد أن يقول في البيتين الأخيرين إن الأعداء قدموا طاعتهم فأسبغ على هذا المعنى ثوبا دينيا جمع بين التكبير والتهليل ، والسجود والشكر لله وقال.

كاد ابن يحيى أن يموت لرعبه لولا تبسمه وحسن المنظر
وابن يحيى هو إمام اليمن ولم يوفق الشاعر في عجز البيت إلى الجودة في التعبير عما يريد .

وقال

أم الحديدة آملا لما رأى غوث اللهيف بها وكهف المعسر
جاء الحمى فروى بفضل وانثنى يروى الحديث عن الربيع وجعفر
رويت بجدوى آل محسن أرضهم حتى اكتست زهوا بثوب أخضر
لله قوم لم يزل من دأبهم خوض البحار وكل بر مقفر

وليس في هذه الأبيات من المعاني سوى مدح آل محسن (آل عون) بالجود والبأس . وفي البيت الثاني جناس بين « روى » بمعنى سقى ، و « روى » بمعنى أخبر . وقد بالغ كثيرا في قوله « خوض البحار ... » فأوهم السامع أن الممدوحين يملكون الأساطيل القوية التي يجوبون بها البحار والمحيطات شرقا وغربا . والحقيقة أنهم نقلوا قليلا من الجنود على ظهر بعض السفن . وفي قوله « حتى اكتست زهوا بثوب أخضر » معنى تداوله كثير من الشعراء . وقال

حرثت ربى نجد حوافر خيلهم قدما وكم زرعوا بها من سمهرى
وسقوا الرياض بجودهم فتزاهرت وغدت بغير مديحهم لم تثمر

كرر فى هذين البيتين بعض المعانى التى سبق أن مدحهم بها . وقد شعر بإفلاسه فلجأ كعادته وعادة غيره من الشعراء المفلسين إلى التلاعب بالألفاظ . فترى طباقا بين « حرث » و « زرع » وتورية فى « الرياض » فهى عاصمة نجد . وقد تكون بمعنى الحدائق والبساتين . ولم تخل جعبة الشاعر من المعانى فقط ، بل خلت من الصور كذلك .

فقال فى الأبيات السابقة

رويت بجدوى آل محسن أرضهم ... حتى اكتست زهوا ثوب أخضر

وقال فى هذه الأبيات

وسقوا الرياض بجودهم فتزاهرت ... الخ فلم يجد أمامه غير صورة واحدة وهى السقى والزرع وقال

آلت رماحهم وقد خاضوا الوغى ... إن لم ترد صدر المدى لم تصدر

وسيوفهم رأت الغراب محرما ... إلا الرقاب ورأس كل غضنفر

فسلوا الملك عن نداه وأخبروا ... فى أى قطر جوده لم يقطر

وليس فى هذه الأبيات شىء جديد . بل هى تكرار لما سبق من مدحهم بالبأس والجود . وفيها طباق بين « ترد » و « تصدر » وجناس بين « صدر » بسكون الدال وبين « صدر » بفتحها . وبين « قطر » بسكون الطاء و « قطر » بفتحها وقال

ماروضة ماست حدائق زهرها ... طربا ونبهها بالربيع المزهر

غنى الحمام على قدود غصونها ... سحرا فأغنى عن سماع المزهر

يوما بأحسن من مديح صنته ... فيهم بنظم قلائد لم تنثر

وهنا تكرار لصورة السقى والزرع . وفيها جناس بين « غنى » و « أغنى » وطباق بين « نظم » و « نثر » وقد تجلت براعة الشاعر فى الانتقال من المدح إلى الفخر بشعره . فبعد أن أشاد بجود آل عون وصور الأقاليم التى غزوها وقد أصبحت جنة تجرى من تحتها الأنهار ، رجع فذكر أن مدحه يفوق تلك الجنة . قال

فإذا شدت ورق الحمى نادبتها ... يا ورق فى ورق الغصون تسترى

وإذا رأيت الجو منى قد خلا ... وهمت بالترحال بيضى وأصفرى

إنى لقاموس العروض ونظمه ... أروى الفرائد عن صحاح الجوهرى

لاتعدلوا فى الشعر كل معمم ... كالثور ذى القرنين بالاسكندر

ما كل من يلى القصيدة ناظم ... قد ينتمى للشعر من لم يشعر

لو كان فيهم شاعر لوقفت فى ... ديوانه أدبا ولم أتكبر

لكنهم جهلوا به ثم ادعو ... ما قصرت عنه شيوخ زمخشر

فى هذه الأبيات قدم الساعاتى نفسه على من حوله من الشعراء ورفع منزلته فى الشعر على منزلتهم . وأطال وأطنب وناقش وجادل دفاعا عن هذه القضية . وقد أسرف فى الزراية بشعراء الحجاز وبالغ فى تحقيرهم . فشبههم بالثيران وشبه نفسه بالاسكندر . وأشار إلى الفرق العظيم بين الثور ذى القرنين والاسكندر ذى القرنين . وقال لو أنه وجد فيهم شاعرا يستحق هذا الاسم لأكرمه وعظمه وأحله المنزلة اللائقة به ولكن هؤلاء الشعراء الذين يناصبونه العداء يجهلون الشعر كل الجهل . ومع هذا فهم مدعون ينسبون لأنفسهم ما قصر عنه شيوخ البلاغة .

وقال

حجوا ولكن بيت كل قصيدة ... سعوا ولكن فى استراق مفكر

وقد اتهمهم فى هذا البيت بالسرقة من شعره والسطو على نظمه . وأسبغ على هذا جوا دينيا كما هى عادته فى كثير من أبيات هذه القصيدة . فذكر الحج والسعى . وعظم من شأن قصائده فجعل كل بيت منها كعبة لهؤلاء الشعراء يحجون إليه ، ويسعون حوله لسرقة ما فيه من المعانى .

وقال

وحبوتموهم لا لشائب غفلة ... لكن لحلمكم وطيب العنصر

يا آل محسن لم يزل إحسانكم ... يدع الدنىء على حاكم يجترى

وفى هذين البيتين استطراد لحملته العنيفة على هؤلاء الشعراء وتحريض عليهم . وقد أجاد فى هذا التحريض . فلم يجعل إحسان آل عون إلى هؤلاء الشعراء من باب الغفلة وعدم الفهم ولكنه من باب الحلم وطيب الأصل . وذكر أن هذا الإحسان قد جرأ كل حقير على قصد نوالهم والطمع فى عطائهم . وهذه الأبيات التى ساقها فى الفخر بشعره وفى التعريض بغيره هى — دون شك — من آثار الخصومة الهائلة التى نشبت بين الساعاتى وبين شعراء الحجاز .

٢ — فى مصر :

يختلف شعر الساعاتى فى مصر عنه فى الحجاز . فامتاز

شعره فى الحجاز كما أسلفنا باحتوائه على بعض المعتقدات الشيعية ، وسيطرة الجو الدينى عليه ، والإشارة إلى المعارك والوقائع ، وتصوير الأعداء وقد جاءوا طائعين مستسلمين . وقد ظهرت فى هذا الشعر آثار العداء الشديد الذى قام بين الساعاتى وشعراء الحجاز . وقد دفعه هـذا العداء إلى الإكثار من مدح شعره ، والتغنى ببلاغة نظمه ومتانة تراكيبه ، وقوة عبـاراته ، كما دفعه إلى التحقير من شأن من حوله من الشعراء .

أما فى مصر فقد كان البيئة تختلف إختلافا كبيرا عن البيئة الحجازية . لذلك بعدت الشقة بين مدائحـه فى امراء مصر ومدائحه فى آل عون .

كان الساعاتى إذا مدح حاكما مصريا خلع على مدحه ثوبا يلائم المقام ومزجه بالإشارة إلى أهم المظاهر التى امتازبها عصر الممدوح . فكان إذا مدح سعيدا أشـار إلى جيوشه وأسـلحته وقلاعه وحصونه ، ونوه ببأسه وقوته وشجاعته وإقدامه .

وإذا مدح اسماعيل تغنى بثراء مصر وخصوبة أرضها ومزايا نيلها وأشاد بقصورها وبساتينها . وذكر أنها هى الدنيـا التى جمعت بين الشرق والغرب ، وحوت خزائن الأرض .

وإذا مدح توفيقا أشار إلى جوده وكرمه وعدله وحلمه وما امتاز به من حسن التدبير وسداد الرأى وجودة التفكير . ومن أمثلة هـذه المدائح قصيدة مدح بها الخديو اسماعيل . وقد بدأها بقوله :

لسمدك من فوق النجوم سماء سماها سـنا من نوره وسناء

كان فى وسع الشاعر أن يأتى بمعنى هذا البيت وهو تافه فى عبارة جيدة وتركيب سهل مستقيم . ولـكنه حرص على أن يملأ بيته بالجناس فجاء تعبيره سقيما ثقيلا على الأذن . فهناك جناس بين « سماء » و « سما » وبين « سما » و « سنا » و « سناء » وبين « سماء » و « سناء » . كل هذا فى بيت واحد . وليس وراء هذا العناء معنى قيم . وقال :

عليك لواء الحمد ظل مظللا علاه من النصر العزيز لواء
لأنك أولى الناس بالمجد والعلا كما لك بالفضل العميم ولاء

والبيتان ضعيفا المعنى والعبارة . فأثقل بقوله « ظلا مظللا » وبدأ البيت الثانى بقوله « لأنك » وفى ذلك ضعف . وكذلك قوله « كمالك » فإنه من سقيم التراكيب الشعرية . وقوله « لأنك أولى الناس بالمجد والعلا » كلام خلو من المعانى . وقد أحس الرجل بضعفه فى المدح فانتقل منه إلى التحدث عن مصر وخيراتها ونعيمها . قال :

لك الملك فاحكم كيف شئت على الثرى فما الأرض إلا مصر وهى ثراء
مبوأ صـدق وهى أنضر ربوة مقام كريم حله كرماء
وذات قرار وهى خير مدينة وملك عظيم أهـله عظماء

والمعنى ضعيف إلى أبعد حد . ويتجلى هذا الضعف فى قوله « مقام كريم حله كرماء » وقوله « ملك عظيم أهله عظماء » فهما خلوان من المعنى خلوا تاما . وقال :

على أنها من جنة الخلد غيضة رياض بها عين وأنت ضياء

وصدر البيت جيد المعنى . وعجزه تافه . والقصيدة كلها ثلاثون بيتا . ومع أنه نظمها فى مدح اسماعيل إلا أنه استغرق أكثر من نصفها فى التحدث عن مصر وأرضها وسمائها ورياضها وحقولها وليس ببعيد أن يكون هذا من أثر الأعوام التى قضاها الساعاتى فى صحراء العرب . فوازن بين تلك القفار وبين مصر . فوجد أن مصر هى أم الدنيا وهى قطعة من الجنة وجزء من الفردوس . وقال :

فأبصرت فردوسا تدانت قطوفها وللنيل فيها كوثر وشـفاء
ومصر هى الدنيا جميعا وربها عزيز وأهلوها هم النجباء
لقد جمعت مابين شرق ومغرب كذلك بالفرقان جاء ثناء
خزائن أرض الله مصر وكم أتى حديث روته السادة القدماء
لقد صير البارى ثراها وأهلها وروى رباها كيف شاء وشاءوا

وهكذا وصف الشاعر مصر . ومع أنه أسهب وأطال فى التنويه بمصر إلا أنه كرر المعانى وردد الصور . فالصورة واحدة فى قوله « على أنها من جنة الخلد غيضة » وقوله « فأبصرت فردوسا تدانت قطوفه » . على أن هذا الإسهاب والتكرار لم يأت عبثا . وإنما هو نتيجة لما شاهده فى صحراء العرب من جدب ومحل ، وفقر وبؤس ، وبعد عن مظاهر الحضارة والعمران . فكبرت مصر فى نظره وعظمت فى عينه فأطنب فى التغنى بخصوبة تربتها وعذوبة نيلها وما فيها من ثراء ورخاء وترف ونعيم .

« يتبع »

محمد سيد كيلانى